نظرية المؤامرة .. والحقيقة التي لا نريد أن نعرفها

نشر في جريدة أخبار الخليج بتاريخ 29 نوفمبر 2020

بقلم: الدكتور زكريا خنجي

يلاقي مصطلح (نظرية المؤامرة) رواجًا كبيرًا في الوطن العربي، أو ربما يمكن أن نقول بين معظم الشعوب المهزومة معنويًا وليس عسكريًا فقط.

فالعرب – كما نعتقد – أنه منذ دخول الاستعمار الغربي في الوطن العربي، وحروب التحرير واستقلال كل الدول العربية وهي تعيش هذا المصطلح، سواء شاءت الشعوب أم لم تشأ، إلا أن هذا المصطلح أصبح اليوم جزءًا مهمًّا من ثقافة العربي، فأي حدث يحدث حوله ويمكن أن يسبب له اختلالاً في حياته فإنه يُرجع هذا الحدث إلى نظرية المؤامرة وتآمر دول الاستعمار، لأن تلك الدول الاستعمارية تهدف بصورة أساسية إلى منعه من التطور والنمو وحتى الخروج من عنق الزجاجة.

فهو عندما يذهب إلى السوق لشراء بعض الحاجات المنزلية ويجد أن تلك الحاجات قد نفدت، فإنه عندئذ يمكن أن يحول هذا الموضوع إلى قضية لأن دول الاستعمار تحاول تجويعه وضرب حصار على الوطن العربي حتى تتحكم فيه. وعندما يذهب لإنجاز معاملة في واحدة من مؤسسات الدولة ويجد أن الفوضى ضاربة في خط الانتظار أو في إجراءات العمل فإن ذلك

يعني أن المسؤولين في تلك المؤسسة يتآمرون على المواطن. وعندما يخرج إلى الشارع ويجد أن السائق الذي أمامه قد اعترض طريقه وتتداخل معه فإنه يعتبر ذلك مؤامرة دنيئة حتى ينفجر من الغضب وهذا الغضب سيؤدي إلى ارتفاع ضغط الدم وبالتالي يمكن أن يؤدي كل ذلك إلى وفاته وبقاء أولاده من غير معيل، ويمكن أن يتشرد أولاده وأهله.

وفي هذه المرحلة قد يقول قائل إن نظرية المؤامرة حقيقة ولكن الأمور لا تصل إلى هذه المراحل، فلا يمكن أن نعتقد أن دول الغرب والاستعمار الغربي قد يتدخل في حياتنا اليومية، ولكنهم حتمًا لهم أصابع خفية في منع تطوير دولنا وحالنا الاجتماعية والثقافية والفكرية والاقتصادية، لأنه إن تمكنت دولنا وشعوبنا من كل هذه الأدوات فإننا يمكن أن نقلب الطاولة عليهم وبالتالي يمكن أن نسيطر على الاقتصاد والفكر وما إلى ذلك، ولكن عندما نحلل ونقارن كلام هؤلاء وهؤلاء نجد أنها تخرج من مشكاة واحدة، فالجميع يعتقد بوجود نظرية المؤامرة بطريقة أو بأخرى.

وربما بسبب جائحة كورونا (كوفيد-19) تم انبعاث هذا المصطلح مرة أخرى ومن جديد، فأصبح انتشار الجائحة في دول العالم مؤامرة تقودها دول الغرب أو الشرق أو أي دولة في العالم حتى تتمكن من القضاء على 75٪ من سكان الأرض، لتعيش البقية الباقية في رخاء، أو حتى يمكن وضع الشرائح الإلكترونية في جسم الإنسان بهدف التحكم فيه ودراسة تحركاته وسكناته، وبالتالي فإنه لن يستطيع أن يعمل أي شيء إلا وقد عرفت الدول

المتآمرة بنيته وماذا يريد أن يفعل وما الذي لا يريده، وكذلك وصل الأمر إلى اعتقاد العديد من الناس إلى أن هذه الشرائح الإلكترونية سوف تتحكم في الجينات و(DNA) الإنسان، لتحوله إلى إنسان آلي، فدول الاستعمار هي التي تتحكم في مشاعره وقدراته ومهاراته وكل شيء.

والغريب في الموضوع أن العديد من كتّاب الغرب والعديد من الصحفيين يأتي بالأدلة والبراهين ليؤكد لنا أن هذه النظرية صحيحة، وأن الدول العظمى تحاول بطريقة أو بأخرى أن تسيطر على دول العالم الثالث أو بالأحرى الدول العربية بالذات، ولا نعرف لماذا يسلكون هذا السلوك، هل لأن نظرية المؤامرة حقيقة أم هي حرب إعلامية لزراعة الخوف في نفوس العرب للسيطرة عليهم ؟

المؤامرة أو نظرية المؤامرة هو مصطلح غربي، لا يعرف بالضبط أو بالتحديد متى تناقلته الألسن، إلا أن المراجع الأجنبية تشير إلى أن من أشهر النظريات التي أدت إلى إطلاق نظرية المؤامرة هي بعد اغتيال الرئيس جون كينيدي بتاريخ 22 نوفمبر عام 1963 وما تبعه من اغتيال المتهم الرئيسي في قتله لي هارفي أوزوالد بعد يومين على يد جاك روبي، ومنذ تلك اللحظة وبعد ذلك أطلق عدد كبير من نظريات المؤامرة والادعاءات غير المعززة بالأدلة. فذهبت هذه النظريات إلى إلقاء اللوم وراء اغتيال كينيدي على وكالة المخابرات المركزية أو المافيا أو نائب الرئيس حينها ليندون جونسون أو رئيس الوزراء الكوبي آنذاك فيدل كاسترو أو الاستخبارات السوفيتية أو

مزيج فيما بينها. وتشير أحد التقديرات إلى كتابة أكثر من ألف كتاب حول اغتيال كينيدي، وعلى الأقل فإن 90٪ من هذه الكتب كانت تتبنى رواية تدّعي وجود مؤامرة ما وراء حادثة الاغتيال، ولذلك فقد أصبح اغتيال كينيدي أحد أبرز نظريات المؤامرة على الإطلاق.

إلا أن العديد من المراجع تشير إلى أن المصطلح كان متداولاً منذ عام 1868، أي قبل 100 سنة تقريبًا من اغتيال الرئيس كينيدي، وما يقرب من 80 عامًا قبل وجود المخابرات الأمريكية نفسها. ولكن من ناحية أخرى فإن المؤامرات كانت منتشرة منذ العصور القديمة للبشرية، ومن أشهر هذه النظريات القديمة هي الفرضية القائلة إن الامبراطور نيرون، لسبب أو لآخر، دبر سرًّا حريق روما العظيم عام 64 ميلاديًا، بينما يعتقد العلماء المعاصرون أن الحريق ربما بدأ عن طريق الصدفة، لذلك نحن نؤمن بأن المؤامرات سواء الواضحة أو التي تجري في الخفاء كانت ومازالت جزءًا من التاريخ البشرية، فربما كان قتل قابيل لأخيه هابيل أول مؤامرة في تاريخ البشرية، إلا أننا من ناحية أخرى لم نجد أي تسجيل لمصطلح (نظرية المؤامرة) إلا في المراجع والأحداث التي تعود إلى القرن التاسع عشر، فتشير بعض المراجع إلى واحدة من المقالات الأولى التي استخدمت هذا المصطلح فقد كانت في صحيفة (بوسطن بوست) الصادرة في 16 أبريل 1868، والتي جاء فيها: «لقد بعثرت شهادة الجنرال شيرمان نظرية المؤامرة الخاصة بالجنرال بتلر في مهب الريح. وبطبيعة الحال، كان توقعًا مؤكدا لمثل هذه

النتيجة أنه اعترض بشدة وثبات على كل سؤال طرحه محامي الدفاع تقريبًا لإخراجه».

ثم انتشر المصطلح في جميع أرجاء الأرض، وكل دولة تستخدم المصطلح بالطريقة التي تخدم مصالحها، فأمريكا والغرب بصورة عامة استخدموا هذا المصطلح بصورة كبيرة بعد أحداث سبتمبر 2001 بهدف تحقيق مصالحها في ضرب أفغانستان وبالتالي العراق وتخريس الألسن وبالتالي السيطرة على العالم، ومن جهة أخرى فهي في حرب اقتصادية مع الصين وكوريا ودول الشرق الأقصى لذلك فما المانع من إطلاق هذا المصطلح لتوحيد الجبهة الداخلية لمقاطعة دول الشرق الأقصى، وهكذا.

وفي مراحل كثيرة تتدخل وسائل الإعلام لتستخدم منهجية سيكولوجية الجماهير، فتحاول أن تضخم من الصورة المعروضة من أجل أن تخدم أهدافها، سواء ببث الخوف في النفوس أو بزراعة فكرة النظرية في العقول والنفوس، أو لتحقيق الهدفين معًا، عندئذ فإن النظرية نفسها تسري بصورة تلقائية بين الناس وتصبح جزءًا من ثقافة العامة كما يحدث اليوم في الوطن العربي، فكل أمر مهما كان يتحول ببساطة إلى مؤامرة.

ونحن هنا إذ لا ننكر نظرية المؤامرة جملة وتفصيلاً، وخاصة فيما يتعلق بصراع الحضارات والأفكار والثقافات، وكذلك ربما فيما يتعلق بموضوع الرغبة الاقتصادية في التحكم في الشعوب إلا أن الموضوع يحتاج منا وبالتحديد الشعوب العربية أن نفكر في ثلاثة أمور مهمة هي:

أولاً: نحن نؤمن بأن لهذا الكون ربا يحميه، لذلك فإنه لا يحدث أي شيء أبدًا في كل هذه الأكوان إلا بأمره هو سبحانه وتعالى، فلا تسقط ورقة شجرة إلا بأمره ولا يموت كائن إلا بأمره، وحتى لو اجتمعت كل البشرية لتقتلك فلن تموت إلا في اليوم الذي قد قرره اللّه سبحانه لك، وحتى لو اجتمعت البشرية لتفصلك من عملك فلن تتمكن إلا بأمره هو ولغرض لا يعرفه إلا هو، ففي الحديث النبوي الشريف عن أبي العباس عبداللّه بن عباسٍ رضي اللّه عنهما قال: كنت خلف النبي صلى اللّه عليه وسلم يومًا، فقال: «يا غلام...» إلى أن قال رسول اللّه صلى اللّه عليه وسلم «وأعلم أن الأمة لو اجتمعت على أن ينفعوك بشيءٍ لم ينفعوك إلا بشيءٍ قد كتبه اللّه لك، وإن اجتمعوا على أن يضروك بشيءٍ لم يضروك إلا بشيءٍ قد كتبه اللّه عليك». رواه الترمذي وقال: حديث حسن صحيحٌ.

وهذه عقيدة مهمة، يجب الإيمان بها لأنها الأمل الذي نستطيع الحياة تحت ظله.

ثانيًا: فلنفترض جدلاً أن كل جزئيات نظرية المؤامرة حقيقة وواقع بكل ما فيها وكل تفاصيلها، بمعنى أن دول الغرب تسيطر على كل مفاصل حياتنا، فهل هذا مدعاة للاستسلام ؟ هل نجلس في بيوتنا ونضع رؤوسنا بين أكفنا ونبكي على اللبن المسكوب ونولول ؟

لنفترض أن موضوع الشرائح التي ستوضع في أجسام أطفالنا وتتحد مع جيناتهم حقيقة، فهل هذا يعني أن نستسلم لما سيأتي ؟ ألا نستطيع أن نرفض أو أن نبدي رأينا على الأقل ؟

ولنفترض أن دول الاستعمار تريد أن تتحكم في الشعوب العربية من خلال السيطرة على الزراعة والأغذية وما إلى ذلك، فهل هذا يعني أنه لا نستطيع أن نزرع في دولنا وأن نربي المواشي ؟

ولنفترض أمورًا كثيرة تريد أن تتحكم فيها الدول الاستعمارية، لنفترض ذلك، ألا يمكن أن نسأل أنفسنا أين أرادتنا وآراؤنا وأفكارنا ؟

أين شبابنا وجيل المستقبل، أين هم عن الهمم والمعالي ؟ لماذا لا نستطيع أن نعلمهم بطريقة حديثة وبمنهجيات حديثة ثم نمنحهم الفرص المناسبة للارتقاء بدولنا ؟ هل هذه أيضًا توضع تحت مظلة المؤامرة ؟

لماذا تغلق الأبواب وتوضع العراقيل في وجوه العقول المفكرة في الوطن العربي ؟ لماذا تتفتح تلك العقول عندما تهاجر إلى الغرب وتنتج ويتحدث العالم عنها، وكذلك تمنح جوائز نوبل للعلوم ؟ هل هذه تندرج تحت نظرية المؤامرة ؟ لماذا تغلق المراكز البحثية أو يمنع عنها التمويل ؟ هل هذه مؤامرة كونية ؟

لماذا يسود جو من الإحباط والاكتئاب بين جموع الناس في الوطن العربي ؟ لماذا على الإنسان العربي أن يعمل طوال النهار والليل حتى يضمن قوت

يومه وقوت أولاده ولا يستطيع أن يفكر في المستقبل ؟ هل هذه أيضًا مؤامرة دولية ؟

أسئلة كثيرة لا نجد لها أجوبة، لذلك فإن أسهل إجابة لها أنها مؤامرة كونية على الإنسان العربي حتى يكون خاضعًا للغرب.

ثالثًا: ليس كل ما يجري في حياتنا اليومية مؤامرة كونية، فالكثير من الأمور والسلوكيات التي نقوم بها هي سلوكياتنا نحن، وأخطاؤنا نحن، وعاداتنا نحن، نحتاج إلى وقفة مع أنفسنا حتى نعيد ترتيب حياتنا مرة أخرى حتى نتحكم في الكثير من تلك السلوكيات والعادات.

فهل عندما يتعرض ابني للتنمر في المدرسة يمكن أن تكون مؤامرة دولية ضد ابني ؟ فهل عندما أعجز عن تغيير الوضع المعيشي أو الاجتماعي الذي أنا فيه، يمكن أن يُعد مؤامرة كونية ؟ هل عندما أذهب لإنجاز عمل ما وفي مكان ما وأجد أن الموظفين والمراجعين لا يتقيدون بالنظام الرقمي والمواعيد يمكن أن يُعد ذلك مؤامرة ؟ هل عندما يتنمر عليّ مدير الإدارة ويستخدم سلطته عليّ لأني أفضل منه فكرًا وأرقى أخلاقًا يمكن أن يخضع ذلك لنظرية المؤامرة ؟ هل عندما يضرب الرجل زوجته أو حتى يحتقرها لأنها لم تقم ببعض الالتزامات لأنها مريضة أو منهكة، أو لأي سبب كان يمكن أن يُعد ذلك من المؤامرات الدولية ؟

لماذا نضع كل الأمور تحت نظرية المؤامرة ؟

لِنُعِدْ التفكير في أنفسنا وحياتنا وثقافتنا، وبعد ذلك يمكننا أن نتحدث.